

## تعريب علوم الطب

للسادس الدكتور حسني سعى  
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

قلة باقية قدر هم أن يشهدوا مولد الاستعراب الجديد في مهده : دمشق، وأن يقفوا على مراحل تطوره ونائه حتى بلغ ما بلغ، كإقرار لي أن أكون من أسمهم في ذلك ولو إسهاماً متواضعاً أيضاً. ولقد بدأنا أنا وثلة من أترابي دراستنا للطب بالتركية قبيل الحرب العالمية الأولى. وامتد ذلك طوال السنوات الأربع الأولى، وختمنها في السنة الخامسة بدراسة بالعربية. ثم كان أن أُسنِد إلى تدريس الأمراض الباطنة وسريرياتها في المعهد الطبي العربي الذي أقيم في دمشق إبان قيام الحكومة العربية الأولى فيها، وهو الذي آتى فيما بعد إلى كلية الطب بالجامعة السورية (جامعة دمشق اليوم) وغيَّرت أنَّ درَّس الأمراض الباطنة بجميع فروعها عدة عقود سنين وليست خالماً عمادة الكلية ورئاسة الجامعة. وقد اضطرني ذلك إلى أن وضعت بضعة عشر كتاباً في موضوعات الأمراض الباطنية لتكون مراجع لطلبة الطب على اختلاف شعبهم ومستوياتهم، وإلى أن شاركت في وضع ما دعت الحاجة إلى وضعه من مصطلحات.

لما رغب إلي أن أتحدث في هذا المؤتمر الراهن، عن تعريب علوم الطب، أو استعراب الطب كما يحلو لي أن يقال، ترددت حيناً بين القبول والاعتذار، فكان ما يدعوني إلى الاعتذار أن هذا الموضوع قد عولج مراتاً في مثل هذا اللقاء، وفي غير مؤتمر وندوة مما عقد في كفف اتحاد الجامعات العربية، ومكتب تنسيق التعريب، واتحاد المجامع العلمية واللغوية، وكان يتناول بتمامه. أو تناول شعب منه، تحت عنوانين شتي كـ(تعريب التعليم العالي وتعريب المصطلحات العلمية وتوحيد المصطلح الطبي ونحو ذلك). وكنت من شارك في بعضها، فخشيت إن ما عاودت الحديث فيه أن لا يكون لي جديد أطركم به، وأن أضطر إلى تكرار بعض ما سلف أن قلته وقاله غيري، "فيكون ذلك مداعاة إلى السامة والملل، ثم حملني على القبول أمور : منها أنه ما اقترح علي الحديث في هذا الموضوع إلا الحاجة إلى ذلك قائمة، ومنها أنني أصدر في الحديث عن هذه القضية عن معاناة لها وتجربة فيها طويلة، وذلك أني واحد من

جهودها وطاقاتها لدرء هذا الغزو الذي كان يستهدف أصل وجودها، وما أن تم لها طرد الغزاة حتى فاءت إلى بلهنية امتدت قرونًا، على حين كان الغرب يستيقظ من رقدته الطويلة ويستأنف نشاطاً حضارياً جديداً انطلق فيه مما أخذه من الحضارة العربية الإسلامية. وما أن ذرَّ قرن عصر النهضة الصناعية في روّعه في القرن الثامن عشر للميلاد، حتى تخضت تلك النهضة عن استحداث كثير من الأدوات والآلات التي لم يكن للإنسانية بها عهد، وعن استنباط تقنيات جديدة، مما هيَّا الأسباب للكشف عن عالم ظل حتى ذلك الحين محجوباً عن الأ بصار، وذلك عالم المجهريات — عالم ما لا يمكن رؤيته إلا بالبصاهر — واستعلنَت حقائق من حقيقة الحياة والوجود كانت خافية، فكان ذلك بداية طور جديد خلقت فيه العلوم خلقاً جديداً، بدأ معه كأنها لا صلة لها بما تقدم في العصور الغابرة، وكانت البداية التي انطلق منها تطور الطب حتى بلغ في أيامنا ما بلغ، أن اكتشفت إذ ذاك حقيقة بدن الإنسان وغيره من الأحياء، وأن تُسْجِّل مكونة من وحدات صغيرة هي التي تدعى بالخلايا، وأن اكتشفت أيضاً الطفيليَّات الدنيا المتاهية في الصغر والجرائم التي هي الأصل في كثير مما يصيب الإنسان وغيره من الأحياء من أمراض. هذا إلى أن أصحاب الكيمياء تمكنوا في ذلك الحين أيضاً من استحداث مركبات شتى سرعان ما أخذَ كثير منها سبيلاً إلى صناعة الصيدلة فركبت عقاقير طبية كثيرة، كانت أنجع في المداواة من أدوية الطب القديم وهكذا تم استعراب الطب وسائر العلوم.

ولما قيض لأنّنا أن تصحو من غفوتها في أوائل القرن الثالث عشر الهجري كان لا بد لاستكمال أسباب النهضة أن تضيف إلى ما ورثه من حضارتها السالفة ما استحدثته الحضارة الغربية في باب العلوم والصناعة، وكان قصب السبق في ذلك

هذا وما أراني بحاجة إلى أن أفيض في ذكر تجربة أسلافنا الأقدمين في هذا الباب، وما كان للطب العربي الإسلامي من شأنٍ في نمو هذا العلم وتطوره، فقد أصبح من الحقائق التي لا مراء فيها أن أطباءنا الأقدمين لم يقتصرُوا على الاطلاع على ما ترجم إليهم من مواريث الأمم الغابرة في هذا العلم بل أعادوا النظر فيما ترجم وعمدوا إلى تقييمه، وتحاوروا ذلك إلى الابداع فيه، فنفوا من طب الأوائل ما ثبت عندهم خطأ، وتداركوا ما كان فيه من نقص، وأضافوا إليه الكثير الكثير من الجديد الذي هدم به إيه بحوثهم وتجاربهم، حتى أصبح الطب عربياً خالصاً وصارت فيه المقولَة المشهورة : كان الطب معدوماً فأوجده بقراط، وميتاً فأحياه جاليوس، ومتفرقاً فجمعه الرازى، وناقشاً فأكمله ابن سينا، وبذلك صارت العربية لغة هذا العلم بلا منازع، حتى اضطر طلبة العلم من الغربيين إلى أن يتعمدوها ليدرسوا بها الطب وغيره من العلوم. ثم عكف فريق منهم على ما ألفه أعلام الطب المسلمين كالرازي وأبن سينا والجوسي من أطباء المشرق وأبن رشد وأبن زهر من أطباء الأندلس، وأخذوا يترجمونه إلى اللاتينية لغة الدين والعلم عندهم إذ ذاك، وظل ما ترجموه عماد دراسة الطب فيما أنشئ في إيطاليا وفرنسا من مدارس لتعليميه، وامتد ذلك قروناً. وكان من ذلك أن سرَّ إلى لغة الطب في الغرب كثير من الألفاظ العربية.

وقد كان الطب العربي الإسلامي قميماً بأن يستمر في النمو والتطوير لولا أن قدرَ هذه الأمة أن تمر في أواخر القرن السابع الهجري بفترة ركود حضاري كان نتيجة حتمية لما دهانها من الأحداث والنكبات العظمى، في طليعة ذلك أن اصطلاح عليها في آن زحفان لم يعرف التاريخ أكبر منها الزحف الصليبي من الغرب يؤازره الزحف المغولي من الشرق، مما اضطرها إلى أن تسخر على مدى قرنين معظم

لأرض الكناة مصر.

وما أن انتهى أمر الحكم في مصر إلى محمد علي حتى أنشأ — فيما أنشأ من مراقب — مدرسة لتعليم الطب أقيمت أولاً في أبي زعبل ثم نقلت إلى قصر العيني في القاهرة. واستقدم لها أساتذة من فرنسا، جاعلاً التدريس فيها بالعربية. ونشطت الترجمة لأمهات كتب الطب، وتتابع إرسال البعثات. وكان لا بد بعد ذلك من إيجاد ألفاظ ومصطلحات طيبة عربية سلكوا في سبيلها ما يأخذ به المستغلون باستعراب الطب اليوم : أحياها من مصطلح الطب العربي الإسلامي ما رأوه وأفوا بالغرض، واجهدوا في وضع مقابل بالعربية لما جد من مصطلحات، وأما ما لم يهتدوا فيه إلى لفظ عربي مناسب فقد جاؤوا فيه إلى التعريب، ولم يمض عقدان من السنين حتى استعرب الطب في جميع أنحاء مصر استعراها كاملاً وبلغ عدة ما ترجمه وألفه أساتذة هذه المدرسة ستة وسبعين كتاباً اشتغلت على ألف من المصطلحات وقد امتد هذا الاستعراب زهاء سبعين عاماً. ثم دهيت مصر سنة 1882 بالاحتلال الأنجلزي وسيطرة دائمة القوم (دنلوب) على التعليم فيها، ففرض تعليم العلوم بالإنجليزية وبذلك حلت الأنجلزية محل العربية في مدرسة قصر العيني وغير اسمها فصارت (كلية الطب) ثم ألحقت بعد بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة اليوم) وظل التدريس فيها بالإنجليزية كما أراد (دنلوب) حتى اليوم.

وقد أثر هذه الجامعة في ذلك سائر ما أنشيء بعد في مصر من جامعات، مع أن النظام الأساسي لكل منها ينص صراحة على أن لغة التدريس فيها هي العربية مع جواز التدريس بالإنجليزية استثناءً، إلا أن الواقع الأمر أن هذا الاستثناء أصبح هو الأصل. وأخذت معالم الاستعراب السابق الذي تم على أيدي رجال صدق من أعلام قصر العيني وغيرهم من

معاصريهم تحى شيئاً فشيئاً حتى كادت تندثر على رغم الجهد الكبيرة الصادرة التي بذلها رجال مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والأعمال العظيمة التي قاموا بها بمعونة خبراء من أساتذة تلك الجامعات لتبسيير أمر التعريب وتهيئة أسبابه.

وفي الحين الذي أخذ فيه استعراب الطب ينحصر في مصر بتأثير نظام دنلوب، أتيح للطب أن يستعرب مدة لم تصل في ديار الشام وفي بيروت منها خاصة، وكان ذلك على أيدي طائفة من المبشرين الأميركيين نزلوا إذ ذاك في بيروت وبعض ما يجاورها من قرى جبل لبنان لينشروا مذهبهم البروتستانتي، وتعلم نفر منهم العربية ليقوموا على ترجمة كتابهم المقدس بعهديه، ترجمة جديدة تخل محل الترجمة القديمة التي لم ترق لهم، حتى إذا أخبروا تلك الترجمة أنشئوا لنشرها مطبعة ما تزال تعرف بـ (المطبعة الأمريكية) وتلا ذلك أن نشروا ما ترجموا من الكتب المدرسية لمرحلة التعليم الابتدائي والثانوي ثم أنشأوا في نطاق ما دعوه إذ ذاك (الكلية السورية الأنجليلية) (جامعة بيروت الأمريكية اليوم) مدرسة لتعليم الطب وجعلوا التعليم فيها بالعربية ودام ذلك نحو أثنتي عشرة سنة، ثم صار التعليم فيها بالإنجليزية. وقد وضعوا خلال هذه الحقبة من الزمن بضعة عشر كتاباً جيداً في شتى علوم الطب، وأفادوا في باب المصطلح من صنيع رجال قصر العيني، إلا أن مصطلحاتهم لم تخل من خلاف المصطلحات أولئك، مردودة إلى أن هؤلاء كانوا يستقون من مصادر أنجليزية أمريكية، وأما أولئك فكانوا يستقون من أصول فرنسية، وللسبب نفسه ما وجد نحو هذا الاختلاف بين المصطلحات قصر العيني والمصطلحات التي وضعت في السنتين الأخيرة في مصر ذاتها.

ومع أن هؤلاء الأميركيين إنما كانوا يرمون إلى أغراض تبشيرية تشوهها مطامع استعمارية، فقد أفاد

للطب تسير على التخط الأجنبي يدرس الطب فيها بالإيطالية، وعهد إلى أولئك بالتدريس باللغة الفرنسية معلنًا في كلمته التاريخية في حفل التدشين سنة 1839 م ما معناه : ليس بوسعنا أن نجعل التدريس بالتركية الآن. وأني أعدكم بأن يتم هذا في القريب العاجل.

ولم ينجح لهذه الإرادة السنوية — كما يقولون — أن تم في حياته، وتحقق في أيام خلفه السلطان عبد المجيد بعد إحدى وثلاثين سنة وأربعة شهور وخمسة عشر يوماً (كما جاء في إحدى المجالات الطبية) والسبب في ذلك المعارضة الشديدة للأساتذة الأجانب، إذ كانوا من دول مختلفة بينهم النمساوي والفرنسي والإيطالي والإنكليزي ومعهم أساتذة من الروم والأرمي من رعايا الدولة العلية (كما كان يطلق عليهما) ولم يكن فيهم من الأتراك إلا اثنان فقط.

أُسخطت الحال الرأي العام، وكان في طبعة الساخطين طيبة الطب أنفسهم ولم يدعوا أن يبيّنوا عن هذا السخط في أية مناسبة، وعن رغبتهم في أن يكون التدريس بالتركية مما دعا الصحافة التركية المناصرة لهم أن تنتهي بهم (الطلاب المجاهدين) ولقيت دعوتهم قبولاً لدى رجال الحكم وعلى رأسهم المدعو أسعد باشا رئيس ما يسمى بالشوري العسكرية، فقد استدعي هذا، ثلاثة من كبار هيئة التدريس الأجانب وسألهما : أي الأمرين أجدى وأعود بالنفع على الأمة، التدريس بلغة أجنبية أم التدريس بلغتنا القومية ؟ فلم يسعهم إلا أن يجيبوا بأن التدريس بالتركية أجدى فائدة. وكان إقراراً لهم هذه، سداً قوياً للقضية، وانتصرت إرادة الأمة، وشرع بالاعداد للأمر عدته، وألفت جمعية طيبة تضم كبار الأطباء عرفت بـ (الجمعية الطبية العثمانية) من أهم مهامها وضع مصطلحات طبية من أجل تدريس الطب بالتركية.

بدأ ترتيل تعليم الطب من السنة الخامسة

صنيعهم في رفع المستوى العلمي والطبي والصحي في ديار الشام عما كانت عليه الحال فيسائر الولايات العثمانية.

والطريف في أمر هذه المدرسة الأمريكية، أن العربية فيها لم تقتصر على التدريس بها فحسب، بل شملت شؤون الادارة والأمور القرطاسية الأخرى حتى أن الدولة العثمانية تساهل معها في بادئ الأمر بقبحها العربية أيضاً في أداء امتحانات الخريجين في إسطانبول من أجل منح الترخيص في حق ممارسة المهنة في البلاد العثمانية — لأن شهادة المدرسة وحدها لا تكفي لذلك — وعدلت الدولة عن العربية بآخرة ولم تقبل أداء الامتحانات إلا بالتركية أو الفرنسية.

أما وقد أتيت على ذكر إسطانبول، ليبدو لزاماً على وأنا في صدد الالام بتاريخ استعراب الطب — أن أُعرج على دار الخلافة، لاتي على ذكر تجربة سبق أن أخذت إليها في بعض أحاديثي السالفة، وهي تجربة الدولة العثمانية في ترتيل الطب، وذلك لأمرتين : أحدهما أنها تضررت مثلاً بطولي في إنفاذ الإرادة القومية نحوً من المثل البطولي الذي يضرره صنع رجال التنصر العيني، والآخر أن حركة الاستعراب لأنغير أفادت من هذه التجربة من الوجه الذي سأذكره.

كانت البدايات التي مهدت لهذه التجربة في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي عندما حاول السلطان محمود الثاني أن يدخل الاصلاح بالأعتماد على النسق الأوروبي في أجهزة الدولة ومُؤسساتها وأن ينهض بها بعدها بلغت من الضعف أن كانت تدعى في الخارج الدولية بـ (الرجل المريض) وكان من ذلك تأسيس مدرسة الطب على غرار المدارس الفرنسية، فاستقدم من أجل هذا أساتذة أجانب من أوروبا. وكان في عاصمة الخلافة مدرسة

(وهي الأولى برتينا اليوم) واستغرق خمس سنوات، وكان من اهتمام السلطان عبد الحميد بشأنه حضوره بالذات امتحانات التخرج.

فيصل الأول فيما بعد) صحبه الاحتلال الجيش البريطاني لسوريا بأكملها من الجنوب إلى الشمال ومن الساحل إلى الداخل، وأطلق على هذه البلاد وقند اسم (بلاد العدو المحتلة) وأخضعت للحكم العسكري وكان من نصيب دمشق تولية الحكم العسكري فيها لفريق علي رضا باشا الركابي، ابن دمشق البار، بلقب (الحاكم العسكري العام) مع منحه سلطة تشبه ما يعرف اليوم بالحكم الذاتي.

وما أن رأى الناس الرابية العربية المربعة الألوان ترفرف في السماء حتى تبفسوا الصعداء عمت الفرحة ودب الحماس فيهم بما يصعب وصفه، وسرعان ما هرع الكل إلى تأييد الحكم العربي القائم . وشد أزوءه، لا سيما وكانت الحكومة ممثلة فيه كل البلاد العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية، وشرع بالاستعراب وبذكى ما ليس عربياً من ألفاظ ومسميات درجت على الألسن، وبخاصة فيما يتعلق بدواieri الحكومة والمصالح العامة، وفي مقدمتها لغة التدريس في المرحلتين الابتدائية والثانوية، وتهيئة ما يحتاج إليه التدريس من كتب عربية، تم ذلك بسرعة عجيبة وسع ما بذل من اهتمام بلا كلام ولا ملل.

بين الصحف والمجلات التي ظهرت في مطلع عام 1919، مجلة أسبوعية أصدرتها مديرية الصحة العامة، لا يتجاوز عدد صفحاتها في بادئ الأمر الثانية وأصبح بعد قليل ست عشرة صفحة تعنى بالأصل بالشؤون الصحية، نشر فيها المرحوم الدكتور حكمة المرادي سلسلة من المقالات بعنوان (اللغة العربية والطب) صحيح فيها الكثير من الأخطاء الشائعة بين جمهور الأطباء من ألفاظ ومصطلحات طبية أخذت عن التركية (وذلك قبيل افتتاح مدرسة الطب) واستمر في النشر بعده، مما كان له الأثر الحسن وعد أول خطوة في الاستعراب. وكان الحدث العظيم في مطلع السنة ذاتها، إعادة افتتاح مدرسة

وكان لتزكيك الطب في الحقيقة شبه استعراب له ومهدًا للاستعراب الكامل، إذ كان نحو 90 في المائة من مصطلحاته ألفاظاً عربية. وما مهد للاستعراب الأخير عمل آخر أقدمت عليه الدولة العثمانية أيضاً في أوائل هذا القرن، وذلك أن إنشاء المبشرين البروتستانت الأمريكيين سنة 1866 م مدرستهم التي سلف الحديث عنها في بيروت، حفز منافسيهم المبشرين الكاثوليك على أن ينشؤوا سنة 1882 مدرسة أخرى للطب فرنسية، باسم (جامعة القديس يوسف) وقيام هاتين المدرستين أصبحت بيروت الجامع الطبي المنظور إليه لا في بلاد الشام وحدها، بل في أكثر بلاد الشرق الأدنى أيضاً، فحمل ذلك الدولة العثمانية سنة 1903 م على أن أنشأت مدرسة للطب في دمشق، لتنافس تلکما المدرستين من جهة، ولسد حاجة البلاد إلى أطباء وصيادلة من جهة أخرى. وما أن اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 م وخاضت الدولة العثمانية غمارها حتى جندت هيئة التدريس وأكثر طلابها، وأغلقت أبوابها ثم أعيد افتتاحها سنة 1916 بعد إلحاقها ولكن في بيروت وفي مبني جامعة القديس يوسف اليسوعية، وكانت الدولة قد صادرتها، واستمرت هذه المدرسة قائمة إلى أن انتهى الحكم العثماني في أواخر 1918 م وقد تخرج منها خلال 15 سنة 240 طبيباً و289 صيدلانياً جلهم من الشاميين، وأما القلة الباقية فكانوا من الترك والأمن.

في خريف عام 1918 تحررت دمشق مع غيرها من بلاد الشام، من الحكم العثماني، بمحمل الجيش العربي (جيش الثورة العربية الكبرى) فيها بقيادة المغفور له الأمير فيصل بن الحسين (الملك

الوهاب القنواتي ولم يلبث غيرهم أن بادر إلى تعلم الفصحي وإنقاذها حتى بدأ التقى بها بالتدريس في المعهد الطبي، الكليات غير العلمية بشهادة أحد المستشرقين الذين زاروا دمشق.

وفي صيف 1920 إحتل الجيش الفرنسي البلاد فقضى على الحكومة العربية القائمة بعد أن سبق إعلان استقلال سوريا في ربيع العام نفسه مع البيعة للمغفور له فيصل بن الحسين ملكاً دستورياً عليها بمحدودها الطبيعية، ونجم عن هذا الاحتلال بعض التغيير في كيان مدرسة الطب العربية، بعد أن انسحب من هيئة التدريس فيها عدد من أعضائها منهم من هو على صلة وثيقة بالعهد السابق الذي أدى رجاله الأذعان لانذار العدو، ومنهم من عرف عنه الارتباط باللجنة الوطنية العليا التي قادت الأمة في جهاد العدو المفترض، وحل محلهم من يداينهم في الكفاية من أطباء وصيادلة.

وبعد أن توطد الأمر للعدو المحتل، وكان لا بد له من التدخل في شؤون المدرسة، ففرض اتباع النظام الفرنسي في برامجها دون غيره، وضم إلى هيئة التدريس ثلاثة من الفرنسيين. وعلى رغم ذلك تابعت حركة الاستعراب مسيرها ولم يثنها عن المتابعة عائق، وكل ما هنالك أن الأساتذة الفرنسيين كانوا يلقون دروسهم السريرية (وهي الدروس العملية التي تلقى حول سرير المريض) بالفرنسية ويقوم بترجمتها إلى العربية أحد المساعدين، ثم استغنى عن الترجمة عندما تقدمت معرفة الطلاب بالفرنسية وصاروا قادرين على فهم ما يلقى بها.

وفي سنة 1923 أحدثت إدارة الجامعة السورية (جامعة دمشق) لتضم معهدي الطب والحقوق والمجمع العلمي العربي، إلا أن المجتمع لم يلبث أن انفصل عن الجامعة متمنعاً باستقلاله الخاص مع إثارة على رعاية الاستعراب في شتى المؤسسات.

الطب بدمشق، تختلف مدرسة الطب العثمانية السابقة. أقيم حفل الافتتاح يوم 23 كانون الثاني سنة 1919 في إحدى باحات المستشفى الحميدي (مستشفى الغرباء كما يعرف به أيضاً)، شهد جمع غفير من رجال الحكم والعلم والثقافة ونواب في رعايته عن الحاكم العسكري العام، مساعدته اللواء ياسين باشا الهاشمي العراقي الانتهاء وألقى الخطيب الحماسي مشيدة في شأن هذه الخطوة المباركة، ولم يمض على هذا الحفل إلا أشهر معدودة حتى تلتله مأثرة ثانية للحاكم العسكري العام بأن أقر تأسيس المجمع العلمي العربي، ثم افتتاح مدرسة للحقوق بدمشق أيضاً لتخلف مدرسة الحقوق العثمانية التي كانت قائمة في بيروت قبل إعلان الحرب العالمية. وبعد شهرين تقضى الأمير فيصل بزيارة المدرسة مبدياً سروره وإعجابه بما تم.

تولى التدريس في مدرسة الطب العربية (مكذا كان اسمها ثم سميت بالمعهد الطبي العربي من الجامعة السورية وأخيراً كلية الطب من جامعة دمشق) تولى التدريس فيها معلمون عرب من ذوي الاختصاص في شعب الطب والصيدلة، بينهم أستاذ سابق في مدرسة الطب العثمانية في إسطنبول الاستاذ وجليهم من مساعدي الأساتذة الترك في مدرسة الطب العثمانية بدمشق وإلى جانبهم بعض كبار الأطباء العسكريين المتخصصين في الجيش العثماني ثم الجيش العربي وكلهم من درس الطب بالتركية، إلا أستاذ واحد كان من خريجي كلية الطب اليسوعية في بيروت إلتحق بالثورة العربية الكبرى وهو ضابط في الجيش العثماني كان من مجيدون العربية.

لم يكن هؤلاء الأساتذة على مستوى واحد من معرفة اللغة العربية من بينهم الجلوس وبعدون بمحق رواد الاستعراب في الشام وهم الأطباء جميل الخاني وأحمد جمدي الخياط ومرشد خاطر والصيدلي عبد

الكثير اللغات إلى العربية، وقد صدرت الترجمة المذكورة عام 1956 م مشتملة على بضعة عشرة ألف مصطلح، واعتمدت رسماً لتكون مرجعاً وحيداً في هذا الشأن.

عُدَّ صدور هذا المعجم في حينه خطوة جديدة لتعزيز تعرِّيف علوم الطب وفي سبيل توحيد المصطلحات في القطر، والحمد من تعدد الترادفات في الكثير منها، وفسح ظهوره المجال أمام النقاش والنقد وإبداء الرأي فيما اشتعل عليه.

نُقدِّتْ هذا المعجم بنشر سلسلة من المقالات في مجلة الجمع العلمي العربي (جمع اللغة العربية بدمشق) بعنوان (نظرة في معجم المصطلحات الطبية الكثيرة اللغات) بلغت عدتها ستة وسبعين مقالة نُشرت على اثنين وعشرين عاماً من المفید أن انتقل إليكم ما قلت في خاتمتها : «لست أدعى أني جئت فيما عرضت له بالقول الفصل، أكبر ظني أني لو أتيح لي معاودة النظر في هذا الذي كتبت لزدت أشياء، وغيَّرت أشياء واستدركَتْ أشياء، إلا أني أرجو أن أكون بما صنعت قد أُسْهِمْت ولو إسهاماً ضئيلاً في وضع مصطلحات الطب وأن أكون دللت بعض المصاعب، لأن الطريق طويلاً، وال الحاجة إلى متابعة العمل وتضافر الجهد فيه ستظل قائمة ما دام العلم في تطور ونمو».

وَثَّة خطوة أخرى حاولت جامعة دمشق أن تخطوها، ولكن لم يكتب لها تام التنفيذ. وذلك أنه أقدم أستاذان من رواد استعراب الطب فيها، وهما الدكتوران : أحمد حمدي الخياط، ومرشد خاطر على وضع معجم فرنسي عربي موسع، شرعاً في المواد شرعاً وأفيا، وجاء في ثلاثة أسفار، ثم لم يتيسر لهما نشره. ومضت سنوات توفي خلالها أحد واصعيه : الدكتور مرشد خاطر ثم قررت وزارة التعليم العالي تقديرها منها لهذا العمل الشمين أن تطبعه على نفقتها

وفي سنة 1924 بدأ المعهد الطبي العربي بإصدار مجلة شهرية تحمل اسمه (مجلة المعهد الطبي العربي) ترأس تحريرها الأستاذ مرشد خاطر وعاشت اثنين وعشرين عاماً (1924 - 1946) وقد أُسْهِمَتْ هذه المجلة إسهاماً كبيراً في ازدهار المعهد وتقديمه من الناحيتين العلمية واللغوية : فمن الناحية العلمية أخذت تنشر البحوث العلمية الأصلية التي كان يقوم بها أعضاء هيئة التدريس ويتناول معظمها دراسات عن الأمراض القرائية (المستوطنة) في القطر من أقصاه إلى أقصاه، إلى جانب مقتبسات من الصحافة الطبية الأجنبية عن كل جديد في عالم الطب. ومن الناحية اللغوية فقد أفاد منها استعراب علوم الطب فائدة لا تُثمن، فعلى صفحاتها عرض على بساط البحث الألفاظ والمصطلحات المتداولة في التعليم لتكون موضع دراسة وتحقيق ونقاش لا من قبل الأطباء الاختصاصيين واللغويين في القطر وحده، بل شاطرهم في هذا نظائرهم من الأقطار العربية الأخرى مما مكن من اختيار الأصلح منها.

على هذه الوربة سار تعرِّيف علوم الطب والمعهد الطبي العربي ماضٍ على الدرب حتى في عهد الانداب الفرنسي على رغم العرقليل التي كانت تُوضع في سبيله خفية.

تبَدَّلت الحال بعد جلاء الأجنبي عن البلاد، وما أن نعم القطر بالاستقلال التام حتى صار عدد أعضاء هيئة التدريس أضعاف ما كان عليه من قبل، لكنه ما أحدث من فروع وشعب جديدة، ويتعدَّد البعثات إلى الجامعات الأجنبية من شرقية وغربية. وكان ذلك مدعاة إلى تعدد ما يقترح في مقابل المصطلح الواحد، مما حمل معهد دمشق على تأهيل لجنة باسم (لجنة المصطلحات الطبية) قوامها الأساتذ مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط وصلاح الدين الكواكبي لترجمة معجم كليفييل الفرنسي

هذا، وقد قادني إلى الحديث عن هذه المعاجم التي ظهرت في دمشق أني في صدد الحديث عن الاستعراب الجديد الذي تم فيها. وأما من حيث التاريخ فكما كانت مصر مهد التجربة الأولى في استعراب الطب كانت السابقة إلى وضع المعجمات الطبية لتعزيز الترجمة إلى العربية أيضاً. ولعل أول معجم هو المعجم الذي ترجمه عن الفرنسي الدكتور محمود رشدي البقللي من أطباء قصر العيني، ونشره في باريس سنة 1870 ثم كان المعجم الذي وضعه ونشره في أوائل القرن الدكتور محمد شرف باسم (معجم الإنجليزي العربي في العلوم الطبية والطبيعية) وهو يعد بحق أباً للمعجمات الطبية العربية، وسيظل علماً شامخاً في تاريخ استعراب الطب الحديث.

ومناسبة احتفال مجمع اللغة العربية بالقاهرة بالعيد الخمسيني لتأسيسه، فقد نشر في العام الماضي الجزء الأول من معجمه (معجم المصطلحات الطبية) من وضع لجنة المصطلحات الطبية فيه، وبإشراف مقرورها الأستاذ الدكتور حسن علي إبراهيم، اقتصر هذا الجزء على مواد من حرف A إلى C، مع تعريف واف لها، والمأمول أن يتواتي صدور الأجزاء الباقية بسرعة، لأن الجميع سبق له أن أورد معظمها في نطاق ما يصدره سنوياً من (مجموعة المصطلحات العلمية والفنية).

وأensem المجمع العلمي العراقي في الاعداد لتعريف علوم الطب، بنشره عدة مجموعات من المصطلحات علوم الطب على اختلاف أنواعها، يرجى عند إتمامها أن تكون معجماً طبياً عربياً كاملاً، كما ولتحمع بغداد الفضل أيضاً في المساعدة الخيرة التي تكرم بها في إسهام نائب رئيسه الأستاذ الدكتور محمود الجليلي بترؤس تحريرطبعتين الأولى والثانية من (المعجم الطبي الموحد) تلبية لاتحاد الأطباء العرب وسيأتي ذكر طبعته الثالثة.

بناسبة احتفال كلية الطب بعيدتها الذهي (مرور خمسين عاماً على تأسيسها) فعهد الأستاذ أحمد حمدى الحياط إلى نجله النجيب الدكتور محمد هيثم الحياط (وهو سر أبيه حقاً) أن يعيد النظر في هذا المعجم وأن يتسع في ذلك ويضيف إليه ماجد في بابه. وأن يراعي ما نقد به المعجم السابق (معجم كليرفييل الكبير اللغات) ولاسيما مقالاتي التي تقدم ذكرها. وما تتفق عليه الكلمة في المعجم الطبي الموحد — وكان قيد الأعداد — وأن يذكر إلى جانب الأنماط الفرنسية ما يقابلها بالأنكليزية أيضاً. وأن يلحق به سفراً رابعاً يشتمل على مسردين للألفاظ أحدهما عربي والآخر انكليزي — لإتمام الفائدة.

وتصدر السفر الأول من هذا المعجم (معجم العلوم الطبية) سنة 1974 وهو يتضمن المواد من حرف A إلى E ويتقع في 604 ص في كل منها ثلاثة أعمدة. وقد ضبطت فيه الألفاظ العربية بالشكل. إلا أن الدكتور هيثم اضطر — بعد وفاة والده رحمة الله — إلى التريث في متابعة العمل حتى يفرغ من الطبعة الثالثة من المعجم الطبي الموحد الذي سيأتي خيره وإعلانه منجز ما وعد به قريباً إن شاء الله.

وهناك معجم آخر نشر في دمشق أيضاً سنة 1970 م وأنفقت نقابة أطباء الأسنان فيها على طباعته، وقد وضعه الدكتور ميشيل الخوري الأستاذ السابق في كلية طب الأسنان وأحد أعضاء مجتمعنا الرائعين، واسمه «معجم المصطلحات تعويض الأسنان، انكليزي — عربي — فرنسي» وقد ضبطت مواده بالشكل، وشرحته بالعربية أيضاً. ولعل هذا المعجم هو المعجم الوحيد في بايه حتى يومنا هذا.

وعلى غرار ما جرت. كلية الطب بجامعة دمشق جرت مختلف كليات الطب التي انشئت فيسائر المدن السورية.

المن، تلها 16 صفحة للوحات إيضاحية و100 صفحة لسرد عربي انكليزي على ثلاثة أعمدة، تمت الطباعة الجيدة في سويسرا وبعنایة الزميل النشيط مقرر اللجنة الأستاذ الجامعي والجمعي الدكتور محمد هيثم الخطاط وجهوده.

والنية معقدة على أن تعيد اللجنة النظر فيه — أمر لا بد منه — لاضافة ما فات اللجنة إضافته وما استجد منذ سنوات، وبآخرة، للبحث في تحضير نسخة من المعجم بترتيب فرنسي عربي انكليزي تلبية للرغبة وإتماماً للفائدة.

هذا بإيجاز، ما تم التوصل إليه — على حد علمي — في قضية استعراب علوم الطب. وما لا شك فيه أنها لأحدى قضائانا المصرية الكبرى التي لا تحتمل أدنى تهاون. ولن يكون لنا وجود متميز تتجل فيه أصالتنا الخاصة وهيئ لنوابنا أسباب الإبداع، إلا إذا كان للغتنا القومية الحيمنة في جميع مجالات حياتنا وفي طليعتها العلم والتعلم على مختلف مستوياته. وإنما قصصت فيما سلف تجارب أسلافنا التي تقدم أمثلة بطلية في هذا الباب، ثم تجربة الجامعة السورية، (جامعة دمشق) التي ما زالت قائمة مستمرة لأنين أن صحة النية وصدق العزم في السعي إلى تحقيق الألماني والمطابع القوية كفilan بتذليل أقسى العقبات، وألححت على قضية المصطلح لأن هذه القضية في طليعة ما يتعلل به الزاهدون في التعريب والمشككون في الاقتدار على المضي فيه، على حين أن قضية المصطلح — من حيث هو ألفاظ يعبر بها عن مسميات ومعانٍ مفردة — ليست بص Cormim المشكلة، بل قد تكون — على ما لها من شأن — أهون جوانبها، وإنما صریح المشكلة هو الاقتدار على وعي المعاني العلمية وتتصورها ثم الابانة عنها، ولن يتم حلها وتذليل صعباتها إلا بالتصميم على ذلك والشرع فيه وإن اضطررنا

وثمة كبير الأمل في أن يسهم مجتمعنا هذا النشيط (مجمع اللغة العربية الأردني) الذي نلتقي اليوم في رحابه — بضميه إلى سلسلة المترجمات العلمية القيمة التي اضطلع بنشرها منذ سنين، مترجمات طيبة مماثلة في الأهمية والتوضيحة لاستعراب الطب في هذا القطر العزيز.

وبين منشورات تذكار العيد المغربي لتأسيس الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1966 صدر قاموس حتى الطبي انكليزي عربي مؤلفه الصديق الدكتور يوسف حتى الأستاذ الأسبق للأمراض الباطنة وعلم التشريح في الجامعة المذكورة، لا تقل مواده عن 50 ألفاً استقى مصطلحاته الطبية من، شتى المراجع قد يها وحديثها، ضمها 758 صفحة على عمودين بالإضافة إلى ما أورد في آخر المعجم بعنوان (فهرس القاموس للالفاظ العربية ومعانيها الانكليزية) جاء في 106 صفحات على 3 أعمدة. وأن في إعادة طباعته أربع مرات خلال السنين الماضية لدليل على ما لقيه هذا المعجم من رواج وما يستحقه من تقدير.

وخاتمة المطاف ومسك الختام في مجموعة المعجمات الكاملة الصادرة حتى اليوم، صدور الطبعة الثالثة من (المعجم الطبي الموحد) قبل سنتين برعاية مشتركة بين كل من مجلس وزراء الصحة العرب ومنظمة الصحة العالمية والاتحاد الأطباء العرب، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ويدعم مادي خير تشكر عليه) بعد أن عكف على تحضيره طوال عدة سنين لجنة قوامها أحد عشر عضواً من الأساتذ الأطباء المجمعين والجامعيين من سبعة أقطار عربية، بذلت هذه الطبعة الأخيرة سابقتها، بأن أصبح المعجم فيها ثلاثة اللغة (انكليزي — عربي — فرنسي) مع تنقيح في بعض ما سبق من مواد وزيادة فيها، (إذ أصبح عدد مواده زهاء 40 ألفاً) وامتازت بأن اشتمل مجلدها الأنيد على 760 صفحة من

الحكومات العربية أن توّلي لغتها القومية مزيداً من العناية في التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي حتى ينخدق الطلبة أصواتها وطائق التعبير فيها، وينموا زادهم من ألفاظها، ويصبحوا قادرين على التعبير بها عن مختلف المعاني بيسر وسهولة، وأن تعني بتنمية الدراسات اللغوية على أصول صحيحة وإذا ما تم لنا ذلك — ولا بد أن يتم إن شاء الله — فلن تكون قضية استعراب العلوم بالمشكلة المستعصية. وما أظن أحداً من أولي النظر — وإن كان من لا يرون التعرّب — إلا منظروها في غيب نفسه على الاعتراف بصدق هذا الذي ذكرت — إن قضية التعرّب أمانة في عنق كلّ منا وما علينا بعد، إلا أن تخلص النية وتصدق في العمل ليتم لنا ما نطمح إليه. اللهم قد بلغت فاشهد.

— ولو إلى حين — إلى استعمال المصطلحات الأجنبية بلفظها الأجنبي. هذا مع أن الأعمال التي قامت بها في هذا الباب مجتمعنا العلمية واللغوية — وفي طليعتها جمع اللغة العربية بالقاهرة ومكتب تنسيق التعرّب والجامعات التي تدرس بعض العلوم بالعربية — تقدم قاعدة صالحة لتعليم تعرّب العلوم. ولكن كنا لما نصل إلى توحيد ما وضع من مصطلحات توحيداً كاملاً، إن هذا لا بد من مثله في بدايات كل عمل، بل قد يكون مما لا بد من بقاء جانب منه، ولا سيما في أمّة كأمّتنا تنسّاخ في رقعة من الأرض غاية من الاتساع. وما أظن أمّة من الأمم الكبيرة تخلو من معاناة مثل هذه المشكلة أو ما يشبهها.

وما لا يسعني إلا أن أذكره أن على